تكرم مؤسسة البابطين المفكر الأميركي نعوم تشومسكي الذي يعد أحد أبرز الشخصيات ذات الطرح الموضوعي في الأفكار المناهضة للحروب والداعية إلى إنشاء توازن عالمي للسلام بين الشعوب

صدرت مطلع هذا الأسبوع عن دار العين للنشر والتوزيع بالقاهرة رواية جديدة للكاتب المصري محمد عبدالنبي، وجاءت بعنوان «في غرفة العنكبوت».

ياسين رفاعية أحد رواد القصة العربية القصيرة يرحل في بيروت

● اشتهر بمجموعته «الحزن في كل مكان» وروايته «مصرع ألماس» وكتب أكثر من 20 رواية ومجموعة قصصية

الكتابة فعل إبداعي لا يمكن أن يتعلمه الإنسان ما لم تكن الموهبة والروح الإنسانية الشفافة أرضيته الأولى، ولا يمكن للتعلم الأكاديمي أن ينتج كتابا موهوبين متجاوزين للسائد، وهذا تثبته الكثير من تجارب الكتاب والشعراء العصاميين الذين غيروا وجه الأدب على مر العصور والأقطار ولكنهم لم يتعلموا الكتابة في الجامعات أو المدارس، فكانت مدرستهم هي الحياة منها أخذوا وإليها أعطوا حياة أخرى. هكذا هو الكاتب والشاعر السوري ياسين رفاعية الذي غادر الحياة التي أعطته تجربتها المرة فبادلها بكتاباته الغزيرة ومتنوعة الأجناس.

أوس داوود يعقوب / كمال بستاني

شريك زكريا تامر ويوسف إدريس في تطوير القصة العربية القصيرة

❑ **بيروت** – توفي الكاتب والشاعر السوري ياسين رفاعية الإثنين عن عمر ناهز 82 عاما ببيروت، وهي المدينة التي استقر بها منذ ستينات القرن الماضي.

ياسين رفاعية كاتب عصامي، حيث منعته ظروف حياته القاسية من مواصلة الدراسة لكنها لم تمنعه من الكتابة، والكتابة الغزيرة التي شملت مختلف الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية، هذا إضافة إلى اشتغاله في الصحافة التي قدم فيها تجربة فريدة في رحلته بين الشرق، لبنان، والغرب، لندن. ففي عام 1961 عمل رفاعية سكرتير تحرير في مجلة "المعرفة"، كما عمل بعدها رئيسا للقسم الثقافي في مجلة "الأحد" اللبنانية، واشتغل في الصحافة العربية في لندن وانتقل منها إلى بيروت.

تنوعت كتب ياسين رفاعية حيث أصدر مجموعات قصصية عديدة أغلبها كان يتميز بنفس ذاتي وعفوي نذكر منها "الحزن في كل مكان" و"رأس بيروت" و"الممر"، كما أصدر عددا من المجموعات الشعرية نذكر منها "أنت الحبيبة وأنا العاشق" و"وردة الأفق" و"العالم يغرق" و"أسرار النرجس"، إضافة إلى عدد من الروايات مثل "امرأة غامضة" و"دماء بالألوان" و"مصرع الماس"، وقد ترجمت هذه الرواية إلى الإنكليزية.

ويبقى الملاحظ في أعمال ياسين رفاعية قدرته على النفاذ من جنس أدبي إلى آخر، حيث لا فرق بين شعره وقصصه ورواياته من حيث اشتغاله على اللغة وخاصة من حيث انطلاقه دائما من رؤية خلّاقة تدفعها ذات صادقة تسعى إلى إرساء قيم الإنسانية والسلام رغم السواد الذي يحيطها، حيث عانى الكاتب كثيرا من تجربة حياتية قاسية لاحقته بفقد أحبته – زوجته وابنته– والملاحقة السياسية والقمع.

رحل غريبا

"غريباً ومهيضاً ومحاطاً برواياته العشرين رحل ياسين رفاعية. الطابق السادس من المبنى المقابل لمنزلي في رأس بيروت سيخلو من شاغله الأخير. وحدها الياسمينة، التي رعتها أنامل زوجته الراحلة أمل جراح، ستذرف قبل أن تذبل دموعاً بيضاء". بهذه

◄ **على الرغم من الحزن والقسوة اللذين أصابا حياته فالكاتب تمكن بشكل أو بآخر من تبديد الحزن بكتاباته العفوية**

الكلمات رثى الشاعر اللبناني شوقي بزيع صاحب الكاتب السوري ياسين رفاعية الذي غادرنا يوم الإثنين في بيروت عن عمر يناهز 82 عاماً. وقالت الشاعرة والإعلامية عبير شرارة "مات ياسين رفاعية، الروائي والكاتب الجميل والحساس، الحكواتي بالفطرة، الإنسان صاحب القلب الأبيض".

كان آخر حوار تلفزيوني أجري مع الكاتب في نوفمبر 2015 عبر برنامج "خوابي الكلام" على شاشة تلفزيون لبنان، مع عبير شرارة، وتحدث من خلاله عن رواياته وعن تعرضه للخطف ومحاولة الاغتيال، وروايته "مصرع ألماس" التي سرقت كاملة في مسلسل "باب الحارة" على حد قوله. وفي روايته هذه يتحدث رفاعية عن دمشق الأربعينات، أيام طفولته المبكرة. وتعكس هذه الرواية الحياة الاجتماعية في سوريا.

وطوال مسيرته الأدبية حاول رفاعية أن يفجر حزنه في كتاباته. يقول في أحد حواراته الصحافية في 2011 إن هذا الحزن نابع من حياته الشخصية. فقد عاش في عائلة فقيرة، واضطر أن يمارس عدة مهن، بينها عامل في شركة نسيج وصانع أحذية وبائع كعك في الطريق، لكن قراءات الكاتب الكثيرة نمت لديه موهبة الكتابة وشجعته عليها.

كتب صاحب "أهداب" أولى قصصه "صانع الأحذية" ونال عليها جائزة في القصة القصيرة من مجلة "أهل النفط" بالعراق التي كان يرأس تحريرها الكاتب الفلسطيني الراحل جبرا إبراهيم جبرا.

ويقول رفاعية "هذه القصة غيّرت مجرى حياتي وانتقلت بعدها للعمل في الصحافة وبدأت أنشر قصصي في الصحف السورية (الشعب، دمشق المساء، النصر، الأيام، الأخبار).

وتقول عنه الكاتبة والصحافية اللبنانية عناية جابر "ليس الهوس بكتابة الروايات والقصص (13 رواية لغاية الآن، عدا القصص القصيرة والمجموعة الشعرية وروايتين لم تُنشرا بعد)، مجرد اكتظاظ فني وسيولة أدبية عند رفاعية. بل إنّها الكتابة المتواصلة التي تُنقذه من الجنون والانتحار. أمر نصحهُ به طبيبه النفسي المُعالج، طالباً منه عدم التوّقف عن الكتابة، بغية استعادة الاتزان إثر حياة طويلة شابها فقدُ موجع. فقد أحبّة تمثّل في موت ابنته الشابة لينا عن سبع وثلاثين سنة، وموت حبيبته وزوجته الشاعرة أمل الجراح قبل موت ابنته بسنة واحدة".

وتعد السيرة الروائية "ياسمين" الصادرة عن "دار جداول" في بيروت في العام الماضي، هي آخر أعمال رفاعية. وتقدّم الرواية في مستهلها صورة عن الصراع ما بين القيم الأخلاقية عند الرجل الشرقي والرجل الغربي، حيث تنظر القوانين إلى الأب كمجرم حاول قتل ابنته، فيما الأب يدافع عن شرفه وما يؤمن بشرعيته وتقاليده في عقاب الابنة التي خانت تقاليد أسرتها.

حكايات للتوثيق

يعتبر الناقد محمد الراشدي أن ياسين رفاعية من الأسماء التي يختطف ما تكتب دون تصفحه وتشرع في قراءته فور اقتنائه، فما يجعله قريبا من القلب هو صدقه العجيب في تكوين المشهد الذي ينجح في أن يمسّك بكتابته كما أن سرده المدفوع بحيرته الخاصة يجعل منه إنسانا يحكي لك مباشرة وبنفسه فحكاياته ليست مجرد كلمات على الورق وحسب، فهو من الكتاب القلائل الذين يجعلونك تشعر بأنهم يهمسون لك بالحكايا كما يعرفونها ويرونها وكأنك المتلقي الوحيد.

عن مجموعته القصصية الأولى "الحزن في كل مكان" يقول القاص السوري ياسين رفاعية في مفتتح أعماله الكاملة الصادرة عام 2012، عن دار جداول، في بيروت "الحزن في كل مكان قصصي الأولى، كتبتها وأنا شاب في العشرين، وصدرت طبعتها الأولى عام 1960، ويوم كتبتها قصة بعد قصة كنت أرى الحياة بغير ما أراها الآن، كنت أقل كآبة، وأقل حزنا، وأكثر فرحا، ومع ذلك كانت القصص سوداوية وقليلة الحظ، ولا أدري وقعها الآن، وقد تكاثرت الكآبة وكبر الحزن ومات الفرح".

ويضيف رفاعية عن الظرف الحياتي الذي أنتج فيه مجموعته "يومذاك، كنت قليل الثقافة، فأنا في الأصل عامل لم تتح لي ظروف حياتي أن أتابع دراستي، وبسبب ذهابي إلى المخبز الذي كنت أعمل فيه منذ الرابعة صباحا حتى السادسة مساء، لم أكن أستطيع القراءة حتى، كنت أعيش حياة صعبة، وبسبب التعب كنت أذهب إلى النوم مباشرة ... كانت أوضاعنا صعبة وشرسة".

ياسين رفاعية تمكن من النفاذ من جنس أدبي إلى آخر، حيث لا فرق بين شعره وقصصه ورواياته

ويقر الناقد أن مجموعة رفاعية القصصية "العصافير" هي المجموعة التي شكلت مرحلة مختلفة وناضجة في مسيرة الكاتب. حتى أن جبرا إبراهيم جبرا قال فيها "العصافير من أجمل وأبدع ما قرأت منذ زمان، أصيلة، عميقة الإنسانية، فاجعة، مفرحة، تترك أثرا معقدا وطيبا في النفس كأحسن الشعر". وقد أورد الكاتب هذه الشهادة رفقة شهادات أخرى خاصة لصالح جودت، وعصام محفوظ، وأمين العيوطي، وغيرهم في مقدمة الأعمال الكاملة.

كاتب في بيروت

وكتبت عناية جابر أن "ياسين رفاعية الذي أمضى جلّ عمره في لبنان، أي أكثر من أربعين سنة، كان يراه البلد الوحيد الذي عاش فيه حراً". وتذكر بأن الكاتب الراحل كان يقول عن بيروت «لم يدق بابي يوما أي شرطي سير! كنت أشعر بالأمان المطلق. يحبونني ويحترمونني وكل دور النشر تقبل كتبي. كما أنني مارست الصحافة هنا، وراسلت كل وسائل الإعلام المكتوبة وصنعت اسمي. لبنان حاليا بعد الحرب الأهلية التي عايشتها بكل فجائعها، انكسر أخلاقيا وانفرز طائفيا، وأصبح الآن على كف عفريت. لا رئيس ولا مؤسسات ولا دولة ولا جهات قادرة حتى على رفع النفايات من الشوارع. هذا سببه أن لبنان ولد ولادة قيصرية وانتزع انتزاعاً من خاصرة سوريا. بيروت هي النافذة التي انفتحت لي على الأفق، بعد بدايات خانقة في سوريا عملت فيها في كل المهن، من صبي فرّان في فرن أبي إلى العمل مع صانع أحذية. حين جاءت لور غرّيب إلى دمشق، أجرت معي حوارا وكنت قد بدأت الكتابة. وعندما عادت إلى بيروت، نشرت حواري ووضعت صورتي على غلاف ملحق «لو جور» وفي الخلفية فرن أبي، وقالت في العنوان: من هذه الجامعة تخرّج ياسين رفاعية. نتاجاتي كما قلت لاقت ترحيبا هنا وفي مصر، والنتاج الجيد يفرض نفسه، خصوصا في سوق الرواية المفضلة عند الناشرين».

حب العراق

يقول محمد حياوي إنه على الرغم من أن "الحزن في كل مكان" و"العالم يغرق"، بل ويحترق منذ أكثر من عقد من الزمان، إلّا أن ياسين رفاعية تمكن بشكل أو بآخر من تبديد الحزن الذي مزّق خاصرته وابتكر أشكالا أخرى من التسرية للمضي قدماً في الحياة، بكبد مفتت ومحترق نتيجة لفقد أحبابه، وبروح ملتاعة يكتنفها الخوف المزمن من شرطي يتوقع أن يخرج له من العطفة المقبلة، أو زوّار فجر يتوقع منذ سنين أن يطرقوا بابه عند الفجر.

لم يدر بخلد حياوي وهو يقرأ رواية رفاعية "رأس بيروت" عن المدينة الجميلة المكتوية بنار الحرب وتفصيلاتها وروائح شرفاتها وقدرة نسائها على ابتكار الجمال وسط هباب تلك الحرب، أن ياسين رفاعية سيتمكن منه الموت فجأة بعد أن ملّ الترقب. ويؤكد أنه لا يدري أين قرأ عن وصية طبيب نفسي له بضرورة مواصلة الكتابة، كنسغ للحياة، فأنتج العشرات من الروايات والمجاميع القصصية وكتب الأطفال، بينما كان الموت يترصده عن كثب، علّه يلقي سلاحه ذات ليلة فيداهمه، لكن ياسين كان قد أدرك اللعبة جيداً، فصار يكتب من دون توقف، تحوّل عنده هاجس الكتابة إلى فعل مرادف للحياة، بالضبط كما كان الأمر مع شهرزاد وهي ترى الموت المترصد بطرف عينها مثل حافز لمواصلة الحكاية. لم يتوقف ياسين عن الكتابة حتّى اللحظة الأخيرة، ليس عملا بنصيحة طبيبه في الواقع، بل لأن فعل الكتابة عنده بات يوازي فعل الحياة نفسها. حتى الموت لا يشعر بنشوة الانتصار في حالته، بعد أن قارعه كل تلك العقود على الرغم من جراحه التي أثخنته.

ويضيف "المدهش في الأمر هو عمق علاقة ياسين رفاعية بالعراق وحبه للعراقيين وحضوره المؤثر في وجدانهم وذاكرتهم، فهو أوّل من وضع سبّابته على جرح العراق عندما أشار إلى أن الحصار الموغل بوحشيته ولا إنسانيته، هو من دمر البنى النفسية والمجتمعية للعراق وليست الحروب، على الرغم من قبحها. وقراءة العارف تلك طالما ألهمتني وجعلتني أعيد تفصيلات هدر الكرامة العراقية والتحول البطيء للناس إلى ما يشبه النمور في اليوم العاشر".

يقول محمد حياوي "ليس الموت نهاية الأشياء بالنسبة إلى الكاتب على ما أعتقد، بل هو بدء معجزته وخلود رؤاه وأفكاره وتعليق شخصياته وأبطاله على مشاجب الذاكرة إلى الأبد. هكذا أفهم موت الكاتب في الحقيقة، وهكذا أفهم ياسين رفاعية وأنا أقلّب الآن صفحات روايته أسرار النرجس".

كاتب لم يعرف الحسد طريقه إليه

عبدالرحمن مجيد الربيعي
كاتب من العراق مقيم بتونس

❑ موت صديقي القريب ياسين رفاعية خسارة كبيرة لي ولمن عرفوه وقرؤوه.

كنت قد تعرفت عليه في بداية حياتي الأدبية عندما كان سكرتيرا لتحرير مجلة "المعرفة السورية" يوم كان يرأس تحريرها الأستاذ فؤاد الشايب أحد أعلام الأدب السوري، حيث نشر لي عروضا لبعض الإصدارات العراقية، وقد بدأت بيننا صداقة عميقة حتى أنني عندما كنت ضيفا على مهرجان الأبجدية في بيروت في أبريل 2015 طلبت من مدير المهرجان الصديق الشاعر أنطوان رعد أن يأخذني إليه. حتى ولدي سومر الذي رافقني في رحلتي كان راغبا في التعرف عليه وعلى الأصدقاء من الأدباء اللبنانيين الذين حدثته عنهم وعن سنواتي الملأى بينهم، وقد ظننت أنه قد انتصر على مرضه وعملياته الجراحية المتعاقبة، إذ كنت أتابع حالته الصحية عن طريق الهاتف.

التقينا كثيرا في بيروت ودمشق ولندن والقاهرة وطرابلس وبغداد كان ياسين مبدعا شفافا لم يعرف الحقد ولا الحسد طريقهما إليه. أذكر أن الفنان اللبناني الكبير رفيق شرف كان يناديه عمو ياسين فأخذناه عنه. أذكر شغفه بطاولة الزهر حيث كان يلذ له لعبها بشكل خاص مع الراحلين عادل أبوشنب ومحيي الدين صبحي.

كان متعدد الإبداع لكنه يظل من بين أبرز كتاب القصة والرواية في سوريا. لقد نكب بابنته لينا ثم بزوجته الشاعرة أمل جراح. رحمك الله يا أبا بسام سأفتقدك أيها العزيز.

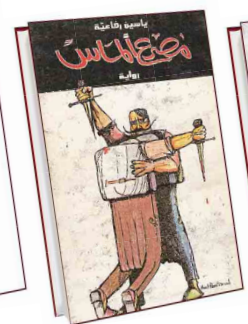

ناسج الفنون المحلق بأحلامه

هيثم حسين
كاتب من سوريا

❑ لا يرد اسم السوريّ ياسين رفاعية (1934 – 2016) من دون التذكير بالوفاء للذاكرة التي عاش فيها وعبرها كتاباته وإبداعه ومدينته وإرثه وحياته. الذاكرة التي نهل منها، تلك الذاكرة الدمشقية، ثمّ البيروتية، بحكاياتها المتشعبة وتفاصيلها الكثيرة وأدقّ دقائقها الحاضرة والمتجسّدة في أعماله، كانت له الملاذ الآمن والبركان المتفجّر في آن، ثم غدت تنقلاته بين الشرق والغرب، وتعرّفه إلى أسرار العلاقة الشائكة بين المجتمعات والأفراد نقاط اتّكاء وشرارات انطلاق لأعماله التي ما فتئت تخوض غمار التجريب والتجديد.

تمكن رفاعية ببراعة من التحرّك في مناطق ملغمة، معتمة، محجوبة، بعيدة عن الاهتمام، وتصدى في بعض أعماله مقاربة الحرب الأهلية اللبنانية، منها "رأس بيروت"، "الممرّ"، "دماء بالألوان"، وعالج المفارقات التي كانت تتخللها وتساهم في إبقاء جمر الأحقاد مستعرة، وآمن بالأدب سلاحا في مواجهة ضجيج الحرب.

طرق ياسين رفاعيّة، الذي أقام في بيروت منذ 1965، مختلف أنواع الأدب والكتابة، كتب في القصة والرواية والصحافة، تخطّى في بعض أعماله، المسموحَ وغير المسموح، من دون أن يلتفت إلى أيّ خطوط حمراء، أو أي إدانة قد تلحقه، أو أيّ تكفير قد يكون له بالمرصاد في العالم العربيّ الذي تضيق فيه مساحة الحرّيات يوما بعد يوم، التقط السياحات الأدبية الإبداعية في عوالم انتهاك المحرّم، وأبدع بـ"تجميل الإثم"، ومحاولة تبرير المقترف روائيّا.

لعلّ إحدى السمات الأهم لأدب رفاعية هي نسجه المتقن بين الفنون، فمثلا كانت رواية «أهداب» غزْلا متقنا بين فنون عدّة، حيث يكون الشعر بطل السرد، والسرد المتدفّق غير المتقيّد بقيود كلاسيكيّة محور الحكي، واللوحةُ الرواية كلّها، يكون الفنّان شاعرا وروائيّا، يغوص عميقا في دواخل شخصيّاته، يعرّيها وتعرّيه، وكل ذلك في عالم الرواية التي لا تعترف بقيود قد تفرض عليها، ولا تنقاد لتقعيد أو تقنين. وتكون بيروت بفنادقها وبيوتها، بسكّانها وزوّارها، بصخبها وهدوئها، خلفيّة مكانيّة للأحداث، لا تتنازل عن موقعها الرياديّ كبلد للحرّيّة، وقدرتها العجيبة على احتواء المتناقضات، بل والسعي إلى المؤالفة في ما بينها.

تلك الرواية التي دارت في فلك الفنّ، حيث تغدو اللوحة هي الرواية، وتسرد الرواية تاريخ اللوحة المرسومة من قبل الفنّان السبعينيّ «عصام» لفتاة في الثامنة عشرة «أهداب»، إذ تنشأ بينهما علاقة حبّ توطّدها الأيّام واللقاءات المستمرّة، ويبدأ الشجن والعشق والبوح بما يعتمل في الصدور، ما جرى وما كان ينبغي له أن يجري، وما لم يجر أيضا، حيث تكون البطلة منطلقة، متحرّرة من كلّ القيود، تبادر إلى التحرّش بالفنّان، ثمّ تغازله، وهو تائه بداية بين الواجب والواقع والضمير، إذ تدفعه إلى التخلّي عن تأنيب الضمير والاستمتاع بكلّ فاكهتها المحرَّمة، ومن ثمّ التمادي في الاستلذاذ بجسدها المتفجّر إغواء وإغراء وجنونا وإعجازا إلهيّاً، يستحيل أن يوجد له ندّ أو مشابه أو مقارب، كأنّ الله تفنّن في رسمها لتكون معجزته المتنقّلة على الأرض، لتكون لوحته الأروع، التي يباهي بها عباده بحسب توصيف البطل.

ظلّ رفاعية مسكونا بعشق الياسمين الدمشقيّ الذي هندس ذاكرته وذكرياته، آثر القرب من مدينته دمشق، اختار بيروت، لتكون منفاه القريب/ الأثير، لأنّه أدرك باكرا أنّ نظام دمشق يدبر للفتك بالبلد وتقييده وتشويه صورته، ويحاول تصميم مبدعين حسب رغبته وتحت الطلب، في الوقت الذي كان رفاعية منطلقا في عوالمه ومبحرا في فضاءات الحرّيّة التي عاشها وعشقها، وهو برحيله يبقى الطائر الدمشقيّ المحلّق بأحلامه وإبداعه في سماء الأدب والفنّ.

"تمكن رفاعية ببراعة من التحرك في مناطق ملغمة، معتمة، محجوبة، بعيدة عن الاهتمام، وتصدى في بعض أعماله مقاربة الحرب الأهلية اللبنانية"